عصر الجاحظ (١)

- ١ -

« حرية الفكر »

اذا أردنا الكلام على عصر الجاحظ فلا نستطيع ان نصور هـذا العصر باحسن من تصوير الجاحظ له ، على ان الجاحظ لم يتبسط في هذا التصوير وانما جرت له عبارة في ترغيبه في اصطناع الكتاب ، واحتجاجه على من زرى على واضع الكتب ، وهذه العبارة على وجازتها وعلى سهولتها قد مثّلت لنا الدهر الذي عاش فيه الجاحظ اكمل تمثيل على ان أبا عثمان قد قذف بها عَرَضًا وأعني بذلك انه نطق بها في مقام وصفٍ غير وصف عصره ، قال (٢) :

« وينبغي ان يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا فينا على أنا قد وجدنا من العبرة اكثر مما وجدوا ، كما أن من بعدنا يجد من العبرة اكثر مما وجدنا ، فما ينتظر العالم باظهار ما عنده ، وما يمنع الناصر للحق من القيام بما يلزمه ، وقد أمكن القول وصلح الدهر وخوى نجم التقيد وهبت ريح العلماء وكسد العي والجهل وقامت سوق البيان والعلم » .

فاذا جاوزنا مبدأ هذه العبارة التي مثّلت لنا كيف تتسلسل آثار العقول فيؤدي كل عصر نتائج ما يجده من العبرة الى العصر الذي يليه ، ويزيد كل عصر في هذه العبرة بقدر ما يتيسر له من العلوم والتجاريب ، اذا جاوزنا هذا كله تراءت لنا صفة عصر الجاحظ

(١) سلسلة محاضرات الاستاذ السيد شفيق جبري احد اعضاء المجمع العلمي العربي التي شرع في المحاضرة بها في كلية الأدب في دمشق من تشرين الثاني سنة ١٩٣٠ .

(٢) الحيوان (الجزء الاول ص٤٣) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة
www.alukah.net

نقيةً صافيةً وبرزت لنا متكاملة متّسقة فماهي هذه الصفة بل ماهي هذه الصفات: امكان القول وصلاح الدهر وخواء نجم النقيد وهبوب ريح العلماء وكساد العي والجهل وقيام سوق البيان والعلم ·

هذه خصائص عصر الجاحظ أفلا يحق لنا بعد معرفة هذه الخصائص ان نقول في عصر الجاحظ ماقاله احد شعراء فرنسة في عصره : واي عصر أخصب من هذا العصر في المعجزات وكيف لا يكون عصر ابي عثمان خصيباً وقد تهيأت لابنائه حرية التفكر وانبسط فيه سلطان البيان وانفسحت آفاق العلم فان عصراً تقوم فيه سوق البيان وتقوم فيه سوق العلم ويمكن اهله ان يفصحوا عما يوحي اليهم هذا الادب وهذا العلم لعصر ريّان الجنبات مخصاب التربة ·

فلنتدقق في هذه الخصائص دون شيء من التطويل ·

قلنا : صفات عصر الجاحظ حرية الفكر وانبساط العلم وقيام سوق الادب فلنشرع في الكلام على حرية الفكر · ولما كان الدين مجال هذه الحرية لزمنا ان نشير الى ناحية من اختلاف الجمهور في امور الدين دون الخوض في النواحي كلها ·

يقول المأمون[1] :

« لنا اختلافان : احدهما كاختلافنا في الأذان وتكبير الجنائز وصلاة العيدين والتشهد والتسليم من الصلاة ووجوه القراآت واختلاف وجوه الفتيا وما اشبه ذلك وهذا ليس باختلاف وانما هو تخيير وتوسعة وتخفيف من السنة فمن أذّن مثنى وأقام مثنى لم يأثم ومن ربع لم يأثم ·

والاختلاف الآخر كنحو اختلافنا في تأويل الآية من كتابنا وتأويل الحديث عن نبينا مع اجتماعنا على اصل التنزيل واتفاقنا على عين الخبر » ·

فلنوضح هذا القول بعض التوضيح ·

انكم لتعلمون ان علوم الدين قسمان : قسم يتعلق باصل الدين وهو علم الكلام او التوحيد وقسم يتعلق باحكام الاعمال وهو الفقه واصوله ومرجع المسلمين في هذه الاحكام القرآن والحديث ·

---

(١) العقد الفريد (الجزء الاول ص ٢٥٥) ·

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والمسلمون في هذا كله طائفتان : طائفة ترجع في اصول الفقه واصول الدين الى الكتاب او الى السنّة او الى اثر من آثار السلف متقيدين بهذه المراجع دون ان يعمل الواحد منهم عقله في تفسير آية او تأويل حديث وهم اهل الحديث .

وطائفة يستعملون عقولهم في تفسير الآيات او تأويل الاحاديث دون شيء من التقيد وهم المعتزلة او اصحاب الفكر الحر .

وبين اهل الحديث وبين المعتزلة اختلاف في امور شتى منها : القضاء والقدر وافعال العباد وصفات الله تعالى وخلق القرآن وغير ذلك .

فالمختلفون في اصول الفقه لايكفّر بعضهم بعضاً وانما المختلفون في التوحيد قد يكفر بعضهم بعضاً فالحديثي يرى ان المعتزلي صاحب بدعة قد نقض بدعه مما أجمع عليه الجمهور وما هدت اليه الآثار والاخبار والمعتزلي يرى ان الحديثي انما هو عامي .

هل كان يجرأ احد قبل عصر الجاحظ ممن خالف الجماعة على التصريح برأيه ؟

ان الذي اتصل بنا علمه ان الخلفاء من قبل المأمون كانوا يعاقبون على الزندقة منهم المهدي ومنهم ابنه الهادي .

اما المهدي فقد قال يوماً لموسى ، اي لابنه الهادي وقد قدم اليه زنديق فاستتابه فأبى ان يتوب فضرب عنقه وامر بصلبه : يابني ان صارلك هذا الامر فتجرد لهذه العصابة (يعني اصحاب مانى) فانها تدعو الناس الى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للآخرة ثم تخرجها الى تحريم اللحم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجاً وتحوباً ثم تخرجها من هذه الى عبادة اثنين : احدهما النور والآخر الظلمة ثم تبيح بعد هذا نكاح الاخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الاطفال من طرق لتقذهم من ضلال الظلمة الى هداية النور فارفع فيها الخشب وجرّد فيها السيف وتقرّب بامرها الى الله لاشريك له فاني رأيت جدّك العباس في المنام فأمرني سيفين وأمرني بقتل اصحاب الاثنين » .

واما الهادي فقد كان في جملة من قتله يزدان بن يازان الكاتب فقد حج هذا فنظر الى الناس في الطواف يهرولون فقال : ما أشبههم الا ببقر تدوس في البيدر .

وقد منع الرشيد عن الجدال في الدين وحبس اهل علم الكلام[1] .

(١) ذكر المعتزلة للمرتضى (ص ٣١) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فلما جاء المأمون أطلق القول وفسح في المناظرات وقد كان المأمون نفسه يحاج الفقهاء في كثير من الأمور منها احتجاجه عليهم في فضل علي فكان يأمر قاضي القضاة يحيى بن اكثم ان يحضر معه رجالاً كلهم فقيه يفقه ما يقال له ويحسن الجواب فيدخلون عليه وهو جالس على فراشه وعليه سواده وطيلسانه والطويلة وعمامته فاذا استقر بهم المجلس تحدر عن فراشه ونزع عمامته وطيلسانه ووضع قلنسوته وما كان يمنعه من خلع خفيه الا العلة ثم يأمرهم بنزع قلانسهم وخفافهم وطيالستهم ويقول لهم : انما بعثت اليكم معشر القوم في المناظرة ثم يلقي مسائل من الفقه و يرد على كل واحد منهم مقالته ويخطيء بعضهم ويناظرهم في مذهبه الذي هو عليه واذا قال لهم : ان امير المؤمنين يدين الله على أن علي بن ابي طالب خير خلفاء الله بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأولى الناس بالخلافة قالوا له دون شيء من التهيب : ان فينا من لا يعرف ماذكر امير المؤمنين في علي ، وقد دعانا امير المؤمنين للمناظرة . وكان يخيرهم أن يسألوه او ان يسألهم ، وكان يتبين له عنادهم في بعض الاوقات وقد يطول مجلسهم و يرتفع النهار وهم في مناظرة[1] .

وقد كان يرد على الملحدين واهل الاهواء واذا قال لمرتد كان أسلم على يديه : اخبرني ماالذي أوحشك مما كنت به آنساً من ديننا وقال له المرتد غيره يتاب ولا وجل : أوحشني منكم مارأيت من الاختلاف في دينكم ، لم يتنكر له المأمون وانما كان يرد عليه فلا يزال يخرج من حجة الى حجة حتى يرجع به الى الاسلام[2] .

واليكم نمطاً من مناظراته ، قال الجاحظ :

« ومسألة أخرى سأل عنها أمير المؤمنين الزنديق الذي كان يكنى بابي علي وذلك عندما رأى من تطويل محمد بن الجهم وعجز العتبي وسوء فهم القاسم بن سيار فقال له المأمون : أسالك عن حرفين فقط خبرني هل ندم مسيء قط على إساءته اونكون نحن لم نندم على شيء كان منا قط ، قال : بل ندم كثير من المسيئين على إساءتهم ، قال : فخبرني عن الندم

(١) راجع العقد الفريد (الجزء الثالث ص ٤٢) .

(٢) راجع العقد الفريد (الجزء الاول ص ٢٥٥) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على الإساءة ، إساءة او احسان ، قال : احسان ، قال : فالذي ندم هو الذي أساء او غيره ، قال : الذي ندم هو الذي اساء ، قال : فأرى صاحب الخير هو صاحب الشر وقد بطل قولكم : ان الذي ينظر نظر الوعيد غير الذي ينظر نظر الرحمة ، قال : فاني أزعم ان الذي اساء غير الذي ندم ، قال : فندم على شيء كان منه ، او على شيء كان من غيره ، فقطعه بمسألته ولم يتب ولم يرجع حتى مات[1] » .

واننا لانستطيع ان نفهم روح هذه المناظرة الا اذا فهمنا روح المذهب الذي ناظر فيه المأمون وهو مذهب مانٍ ، وسيأتي الكلام عليه .

وقد كان غرض المأمون في هذه المناظرات كلها اجتماع الطوائف على ما هو أرضى وأصلح للدين وكان يكره في المناظرات الشتم والبذاءة لان الاول في نظره عي والثانية لؤم وانما اباح الكلام واظهر المقالات فمن قال بالحق حمده ، ومن جهل ذلك وقفه ، ومن جهل الامرين حكّم فيه بما يجب .

غير انه لم يصل في مجامع مناظراته الى ما رمى اليه فلم ير بدّاً من الاستعانة بسلطانه في اقامة الدين ولاسيما في خلق القرآن واحداثه فعزم على ان لا يستعين في عمله ولا يثق فيما قلده الله واستحفظه من امور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده و يقينه .

وادّى الامر في هذا كله الى ان الذي كان لا يقول بخلق القرآن يشد في الحديد ولما حضرته الوفاة تقدم الى اخيه المعتصم في ان يبني على اصوله في مناظرة القوم في خلق القرآن فكان المعتصم يجمع الفقهاء والمتكلمين والقضاة لامثال هذه المناظرات وكان يقول في بعضها :

« ما شيء أحب اليّ من الستر ولا شيء اولى بي من الأناة والرفق ، وكان يقول لمناظره : لئن استحببك بحق أحب اليّ من ان اقتلك بحق[2] » .

الا ان من خالفه كان يلقى الضرب والتعذيب . وكذلك الواثق فانه سار سيرة ابيه

---

(١) الحيوان (الجزء الرابع ص ١٤١) .

(٢) هامش الكامل — رسائل الجاحظ (الجزء الثاني ص ١٣٤) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المعتصم وعمه المأمون في المناظرة في خلق القرآن فمن خالفه في رأيه قتله . حتى جاء المتوكل فترك الناس وشأنهم .

فالى هذه الحرية أشار الجاحظ في قوله : وقد أمكن القول وصلح الدهر وخوى نجم التقيد ، واخذ من بعد هذا يستنهض العلماء لاظهار ما عندهم وللقيام بما يلزمهم وكان هو نفسه يُظهر ماعنده غير مبال بالجمهور .

فلنضرب مثلاً لحرية فكره في التفسير وقد خرج عما يعتقده الجمهور ، قال[1] :

« وقد قال الناس في قوله تعالى : انها شجرة تخرج في أصل الجحيم ، طلعها كأنه رؤوس الشياطين ، فزعم الناس ان رؤوس الشياطين ثمر شجرة تكون ببلاد اليمن ، لها منظر كريه ، والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير ، وقالوا : ما عنى الا رؤوس شياطين معروفين بهذا الاسم من فسقة الجن ومردتهم ، فقال اهل الطعن والخلاف : كيف يجوز ان يضرب المثل بشيء لم نره فنتوهمه ، ولا وصف لنا صورته بكتاب ناطق او خبر صادق ، ومخرج الكلام يدل على التخفيف بتلك الصورة والتفزيع منها ، وعلى انه لو كان شيء أبلغ في الزجر من ذلك لذكره ، فكيف يكون انسان كذلك والناس لا يفزعون الا من شيء هائل شنيع قد عاينوه ، او صوّره لهم واصف صدوق اللسان ، بليغ في الوصف ، ونحن لم نعاينها ولا صوّرها لنا صادق وعلى ان اكثر الناس من هذه الامم لم يعاين اهل الكنائس وحملة القرآن من المسلمين ، ولم تسمع الاختلاف ولا يتوهمون ذلك ، لا يقفون عليه ولا يفزعون منه ، فكيف يكون ذلك وعيداً عاماً ، قلنا : وان كنا لم نر شيطاناً ولا صوّر رؤوسها لنا صادق ببدء ففي اجماعهم على ضرب المثل بقبح الشيطان حتى صاروا يصفون ذلك في مكانين احدهما ان يقولوا : لهو أقبح من الشيطان . والوجه الآخر ان يسمي الجميل شيطاناً على جهة التطير به كما تسمي الفرس الكريمة : شوهاء ، والمرأة الجميلة صمتاء ، وقرناء ، وخنساء ، وحرباء ، وأشباه ذلك على جهة التطير به ، ففي اجماع المسلمين والعرب وكل من لقيناه على ضرب المثل بقبح الشيطان دليل على انه في الحقيقة

---

(١) الحيوان (الجزء السادس ص ٦٤) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أقبح من كل قبيح والكتاب انما نزل على هؤلاء الذين ثبت في طبائعهم بغاية التثبت ، وكما يقولون : لهو أفصح من السحر الحلال ، وكذلك يقولون كما قال عمر بن عبدالعزيز لبعض من أحسن الكلام في طلب حاجته : هذا والله السحر الحلال ، وكذلك ايضاً ربما قالوا : ما فلان الا شيطان على معني الشهامة والنفاذ وما أشبه ذلك » .

وقد بلغ من هذه الحرية ان المجوس أنفسهم كانوا يعارضون علماء المسلمين ، من هذه المعارضات مارواه الجاحظ فقد قال[1] :

« وقد عارضني بعض المجوس وقال : فلعل ايضاً صاحبكم انما توعد أصحابه بالنار لان بلادهم ليست ببلاد ثلج ، ولا دهن ، وانما هي ناحية الحرور ، والوهج والسموم ، لان ذلك المكروه أزجر لهم فرأى هذا المجوسي انه قد عارضني فقلت له : ان اكثر بلاد العرب موصوفة بشدة الحر في الصيف وشدة البرد في الشتاء لانها بلاد صخور وجبال ، والصخر يقبل الحر والبرد ، ولذلك سمت الفرس بالفارسية العرب والأعراب : كهيان ، والله بالفارسية هو الجبل فمتى أحببت ان تعرف مقدار برد بلادهم في الشتاء وحرها في الصيف فانظر في اشعارهم وكيف قسموا ذلك وكيف وضعوه لتعرف ان الحالتين سواء عندهم في الشدة ، والبلاد ليس يشتد بردها على كثرة الثلج وقلته ، فقد تكون بلدة ابرد وثلجها اقل ، والماء ليس يجمد للبرد فقط فيكون متى رأينا بلدة ثلجها اكثر حكمنا ان نصيبها من البرد أوفر وقد تكون الليلة باردة جداً وتكون متغيرة فلا يجمد الماء ويجمد فيما هو أقل منها برداً ، وقد يختلف جمود الماء في الليلة ذات الريح على خلاف ما يقدرون ويظنون . وقد خبرني من لا أرتاب بخبره انهم كانوا في موضع من الجبل يستعذبون به بلبس المبطنات ، ومتى صبوا ماء في اناء زجاج ووضعوه تحت السماء جمد من ساعته فليس جمود الماء بالبرد فقط ولا بد من شرط ومقادير واختلاف جواهر ومقابلات احوال كسرعة البرد في بعض الادهان وابطائه عن بعض ، وكاختلاف عمله في الماء المغلي وفي الماء المتروك على حاله وكاختلاف عمله في الماء والنبيذ وكما يعتري البول من الخثورة والجمود على قدر طبائع الطعام والقلة والزيت خاصة يصيبه المقدار القليل من النار

(١) الحيوان (الجزء الخامس ص٢٥) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فيستحيل من الحرارة الى مقدار لايستحيل اليه ماهو أحرّ . وحجة أخرى على المجوسي وذلك أن محمداً صلى الله عليه وسلم لو كان قال : لم أُبعث الا الى اهل مكة لكان له متعلق من جهة هذه المعارضة فأما وأصل نبوّته والذي عليه مخرج امره وابتداء مبعثه الى ساعة وفاته انه المبعوث الى الأحمر والأسود والى الناس كافةً . وقد قال الله تعالى : قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم جميعاً . وقد قال تعالى : نذيراً للبشر فلم يبق ان يكون مع ذلك قولهم معارضة وان يعد من باب الموازنة » .

دمشق : ٢٤ كانون الثاني سنة ١٩٣١

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net